

أشياء تحدث

عبد الواحد استيتو





© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة ل

www.nashiri.net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب

نشر إلكترونيًا في يناير 2004

المحتويات

- منى ... طنجة
- كلمة يريد لها
- لقاء عابر
- إغتراب
- امرأة مجنونة لا تحبه
- راشيل
- رهان خاسر
- حديث المقهى
- أشياء تحدث !
- لماذا فعلتها ؟
- مخاض
- هروب
- دردشة
- حرية من نوع آخر
- الخوف
- رغبة
- سيرة ذاتية لا بأس بها على الإطلاق

منى ... طنجة

- أمام هذا البحر فقط أعلن فشلي في أن أكون واقعيًا كما أمل.
ابتسمت مني لجملتي ..
- لا أعرف من أين تأتي بهذا آراء ، لكنك صادق بالفعل . لا شيء مثل هذا
الامتداد الأزرق يجعلك تشعر أن الحلم لا زال ممكناً .. أتجد للأحلام طعم
الملح كما البحر ؟ أم أن هذا يحدث معي فقط ؟
على شعرها الأسود مررت كفي و ابتسمت دون أن أعلق أو أجيب.
في شهر نونبر تتضج الأحلام ، تصبح يافعة . في هذا الشهر يمكن أن تكتب الشعر
دون أن يتهمك أحد بالجنون مثلما يفعل معي كل معارفي عندما أحاول أن أكتبه في
شهور الصيف.
المطر يتساقط بحنان غريب . مجرد قطرات تدغدغ أحلامنا و أفكارنا و أمنياتنا .
أمام
" سور المعجازين " وقفنا نتأمل البحر و الأفق و الميناء .. سفن تجيء و أخرى
تذهب . أناس يغادرون البؤس إلى النعيم و آخرون يأتون ليتذكروا كم كانوا يوما
ضائعين و ليثبتوا للآخرين أنهم كانوا هناك.
- تعرف أنني لم أكف عن الغيرة من مدينتك هذه يوما ؟
طبعاً أعلم . بل إنني أتذكر جيداً يوم انقطعت عني رسائلك لأنني قلت لك أنني لا
أعرف من حبها أقوى في قلبي : أنت أم طنجة !!
عامين من المراسلة دون أن أراك ؟ لم أكن أتصور هذا اللقاء ممكناً لكثرة ما تحدثنا
عنه و كأنه خيال نتمناه و نحلم به دون أن نجرؤ على تحقيقه بالفعل . لكنك - و
أنت النزقة - فعلتها بكل بساطة . هكذا أتاني صوتك ذو البحة التي أحبها :
- أنا الآن في محطة القطار ، يمكنك أن تأتي لاستقبالي إن كنت تحب ألا أتيه منك .
جنون ؟ جرأة ؟ براءة ساذجة ؟ لم أحاول البحث عن تفسير . كل ما أعلمه أنك
عندما تريد أن تكوني حازمة في قرار ما فإنك تقعين دون كثير تردد .. و قد
فعلتها .
و من ذا الغبي الذي يبحث عن تفاسير ؟ أنت هنا .. و أنا في انتظارك منذ أمد غير
قصير .. فلنلتق.
قلت لي أن طنجة مدينة غريبة ، لم تستطعي فهمها لحد الآن . فضلت الصمت من
جديد ، سأترك طنجة تجيب عنك بروحها ، بألقها ، بحبها لك أيضاً.
من قال أن المدن لا تحب ؟ طنجة فعلتها معي و تركتني متيماً بحبها منذ مدة طويلة
طويلة . قادرة هي على التلاعب بمشاعري .. على جعلني عاشقاً متيماً بها إلى الأبد.
تساءلت :
- كيف خطر لي يوماً أن أغار من مدينة ؟ أعرف أن المدن تبتسم لكنها لا
تحب لذا لا أرى الآن داعياً لغيرتي.

في عينيك بريق .. ذكاء قوي ، و قدرة على الفهم غير خافية . بينك و بين طنجة أنا مجرد رجل ضائع . أعرف أنها تشعر بالغيرة لأنني التقيتك لكنها لا تستطيع أن تحتج لأنها تحبني فعلا .
أنت تتكرين غيرتك لها ، لكنك لم تتكري يوما أنك تركت لي الكلمات التالية في ورقة صغيرة قبل أن تغادري و أنا أصافحك :
المرأة لا تغار من مدينة ..
المرأة تغار من امرأة مثلها .
لكن المدن أنواع ..
و طنجة مدينة ذات حزن جميل ..
و أخشى أن تتحرك ماشوسيتك ..
فتعشق هذا الحزن حتى تنسى كل حب .. كل حب ..

كلمة يريدھا

كان (سين) يستمتع بأيام مراهقته إلى أقصى حد كأني مراهق آخر : حبّ الشباب ، الكآبة ، الحقد على عدد لا بأس به من الأشخاص الحكماء الذين يحيطون به، حب يائس لفتاة لن تنظر إليه أبدا. شخص آخر في صالة الانتظار – حيث الملل - للدخول إلى مرحلة الشباب.

الاختلاف الوحيد ربما الذي كان يميزه عن المراهقين من أمثاله أنه كان يقرأ الجرائد . نعم .. قد يثير الأمر الدهول لسببين : الأول : إما لأنه يقرأ الجرائد – بكل جديتها – في هذا السن . الثاني : أن هذا ليس شيئا أمرا غريبا يميزه، فما يثير الدهول – إذن – هو ادعائي.

لكنني عندما كنت أقول لمن يتهمني بالمبالغة أن (سين) يعيش في بلد عربي كانوا يبتسمون و هم يومئون برؤوسهم دلالة على أنني محق. البارحة – كما قلت لك – كان عائدا من مدرسته مطأطأ الرأس كعادته و هو يئن تحت ثقل محفظة كتبه . لازال المسؤولون لدينا يصرون على أن تكون المحفظات ممتلئة إلى حد التمزق ، بدلا من محاولة ملء العقول.

و كما تعلم ، لم يبق على نهاية الموسم الدراسي سوى أسابيع . تذكر هذه الفترة حتما . حيث يبدو ما يقوله الأستاذ مجرد وسيلة للتعذيب لإبقائك أطول فترة في الحجرة الدراسية التي تتحول إلى فرن بفعل حرارة فصل الصيف. و حيث تبهر بخيالك بعيدا إلى جزر بعيدة بعيدة . تلك الجزر اللطيفة الجو، الذهبية الرمال، الممتلئة بخلا . تعرفها ؟ طبعاً نعم . فلا يخلو إعلان تلفزيوني منها.

لكنك – في الأخير – تستيقظ على ألم رهيب في أذنك التي يشدها أستاذك بقسوة و تلذذ سادي لا مثيل له. " ركز معنا أيها الحمار، أو إذهب إلى بيتك للنوم". المهم ، بدا لي (سين) مهموما أكثر من أي وقت مضى . كنت مهتما به دائما. كانت تثيرني مسألة اهتمامه بقراءة الجرائد يوميا في الكشك الذي يقابل المقهى. كذلك عزلته و انطواءه و ابتعاده عن مراهقي الحي ، لكنني لم أكلمه يوما.

وقف كعادته قرب كشك الجرائد و أنا أتابعه باهتمام. أحفظ ما سيفعله بالضبط : سيشترى جريدة (ضاد) و يقول شيئا للبائع ثم يغادر. فعل ما اعتدته منه ، لكنه – لأول مرة – إتجه نحوي بدلا من متابعة سيره . هل يريدني في شيء؟ لا. لقد اتخذ مقعده بالمائدة المجاورة و فتح الجريدة و بدأ يتفحصها بتمعن و كأنه يبحث عن موضوع معين. هذه المرة لم أستطع مقاومة فضولي فسألته و على شفتي ابتسامة حاولت أن أجعلها ودودا ما استطعت :

هل من أخبار جديدة ؟

إلتفت إلي في بطء و فتح فاه كأنه يهم بالرد لكنه تراجع و عاد ينغمس فيما يفعله بنفس التركيز.

العبارة دائما هكذا .. هذا ما قلته لنفسي. لكنه ما لبث أن استدار و قال بلهجة شممت فيها رائحة وقاحة :

أنا لا أقرأ الأخبار .
لا بأس . لمحة عبقرية أخرى . إنه ذاك المزاج المتعكر دوماً و الحنق على
المجتمع كله . هذا الولد يذكرني بمراهقتي حقا .
ماذا تقرأ إذن ؟
نظر إلي مرة أخرى بشرود ، ثم طوى الجريدة و اقترب مني بمقعده و سألني :
هل تتابع جريدة (ضاد) يوميا ؟
لا ، أحيانا فقط .
للأسف .

لكن يمكنني أن أفعل إن كنت تريد مني خدمة كهذه .
انفجرت أساريه لتعاطفي و قال :
لن أنسى لك هذا الصنيع يا أستاذ .
ثم نهض كأنه يهم بالمغادرة لكنني استوقفته :
لم أفهم ما المطلوب مني بالضبط ؟
- آه ، عذرا .. إنه الشرود كما تعلم .
ثم إنه اقترب مني أكثر و حمل صوته لمحة خطورة لا تخفى على أحد :
لقد كتبت ل(سامية) رسالة حب عن طريق لصق كلمات من جريدة الضاد . و
لقد وفقت في إنهاؤها كلها بهذه الطريقة . لماذا ؟ طبعاً لأنني لا أريدهم أن
يتعرفوا خطي في المدرسة كي لا أطرده ، فهي ابنة المدير . و بما أنني أحب
الدقة فقد قصصت كل الكلمات من نفس الجريدة كي أثير دهشتها و إعجابها
و المشكلة التي تواجهني الآن أنني منذ شهرين و أنا أبحث في الجريدة عن
آخر كلمة أريد أن أختتم بها رسالتي فلم أجدها ، و لا يمكن أن أواصل شراء
الجريدة إلى الأبد ، فهل تقوم بهذه الخدمة عني ؟
و ما هي هذه الكلمة ؟
أحبك .
قالها دون خجل . قالها و هو يرفع كفيه بفخر . قالها مفجراً في داخلي ألف تساؤل
و حيرة لا تنتهي .

أبعد كل هذا تسألني – أنت - لم شددت أذنه بقسوة سادية حتى كدت أمزقها ؟

لقاء عابر

- هنا فقط تكون أنت فعلا، و تكف عن محاولة أن تكون أنت.
في " المقهى الكبير " جلسنا أنا و سارة ، وفي عينيها لمحت جنين ابتسامة يوشك أن يولد و هي تقرأ عبارتي التي كتبتها لها في دفتر الذكريات كما يحلو لها أنت تسميه

بدت ساهمة و هي تنتظر بعينيها الزرقاوتين إلى بعيد . أتراها تفكر في عبارتي ؟
طلبت شايا أسودا من النادل المؤدب الذي اقترب منا بهدوء و كأنه يخشى أن يكسر صمتنا الثرثار . لنفسها طلبت سارة قهوة بالحليب .

- غريب !!

علقت على اختيارها دون كبير رغبة في التعليق فعلا . من حق أي شخص في العالم أن يطلب قهوة بالحليب في مدينة بروكسيل .

لم يبد عليها أنها سمعت تعليقي و هي تقول ملتقطة إلي باهتمام مشوب بتلذذ سابق لأوانه بحوار حافل :

- تعتقد إذن أننا واثقون من أنفسنا إلى هذه الدرجة ؟

- أنا لا أعتقد يا سارة ، أنا متأكد . عيونكم .. حركاتكم .. مشيتكم .. كلها تقول

أنكم أناس واثقون ، يعرفون ما يريدون . أما نحن .. نحن .. ماذا أقول لك يا

سارة ؟ إن نسبة المغاربة التي تعيش عندكم تجعلك في غنى عن استنتاجي .

- لا بأس ، أعترف أن أغلبكم في بحث دائم، لكن ليس عن الذات .. بل عن المال . مشكلتكم - أعتقد - هي الفقر و لا شيء غيره . ها أنتم هؤلاء هنا لا من أجل شيء سوى من أجل الثراء ثم المفاخرة .

- المال هو المرادف الأكثر ملاءمة لكلمة الذات في بلدي ، المال مرادف لكل

كلمة جيدة قد تخطر على بالك . الكثيرون يخلطون من الاعتراف بهذه الحقيقة .

مقينة هي . مثيرة للأعصاب . مدمرة . لكنها هنا .

- تعرف أن خالي " جاك " قال لي أن لوحاتي تعكس شخصية مهتزة و غير واثقة بالمرءة .

- لا أعرف كيف قرأ لوحاتك خالك سارة . لكنني رأيت العكس ، إن كان لضربات

ريشة أن تعكس الثقة بالنفس فهي ضربات ريشتك و التحف التي تترك وراءها

.. لا تعرفين أي انطباع تركت في نفسي لوحتك : " الخيول " ! أي جموح ..

أي ثورة .. أي قدرة على قول لا كبيرة لكل ما ترفضين .

لحظات صمت أخرى لفتنا . أمامنا قرب "ساحة البريد " بدأت فرقة موسيقية

متجولة في العزف . في صوت تلك المطربة الزنجية الملامح شجن لذيذ ..

لأنك رجلي ..

و لأنني أحبك ..

ستظل الوطن بالنسبة لي ..

فكم هو لذيذ أسر الوطن ..

لحظات منفلتة كالزئبق من الزمن تلك التي تخلّيت فيها عن وقاري و طاوعت سارة
في رغبتها في الرقص. طفلا كنت . سعيدا كنت أيضا .
في مطار " زافنطم " وقفت سارة تودعني و تتوعدني أنني إن لم أعد فستلاحقني
إلى طنجة .

أخرجت من حقيبتني دفترًا مهترئًا و طلبت منها أن تكتب لي كلمات للذكرى
كمحاولة تقليد لم تكن سخيّة إلى تلك الدرجة على أية حال .
كتبت :

يحكون عنك : أن طينة الخلاص منك،
و أن نوحا (عليه السلام) فيك قد تقيأ الأمان،
و أنه حمامة ، أو هدهد،
و أنه غراب
و بين موجتين
تتاسلت طنجة ملء زبد البحر(*)

و أنا أقرأ عباراتها مجددا لاحت لي أضواء طنجة من بعيد فأدركت أنني سأبقى
متيما بحبها أيا كانت النتيجة . و مهما كثرت رحلاتي. هكذا ، مجرد عاشق آخر لا
يكف عن البكاء لأجلها . و من مقلتي انحدرت دمة ساخنة لم أكلف نفسي مسحها
و هي تواصل طريقها مخترقة جسدي و روحي .

إغتراب

تعريف العذاب بسيط بالنسبة لي : هو أن تعمل ساعي بريد في فيينا. ليس الأمر مزحة حتما . لم أكن أعلم أنني سأقاسي إلى هذه الدرجة في الغربة . لم يحك لي أحدهم عن أشياء كهذه . كل من عاد من أوروبا كان يقول لنا أنها جنة الله في أرضه . في بادئ الأمر لم أكن أهتم ، لكنهم نجحوا أخيرا في إثارة فضولي و ربما غيرتي أيضا ، و أنا أراهم يعودون بسيارات تدير الرؤوس و تجعل المارة يرتطمون بأقرب عمود إنارة . سمير – مثلا – كان يقسم ألا أدفع شيئا عندما نذهب إلى الشاطئ ، كان يصصر على الدفع باحتقالية و ضجيج كبيرين . لا بد أن يراه العالم كله و هو يخرج نقوده المقدسة في محفظته . كنت أفهم قصده جيدا و رغبته في الظهور لكنني لم أفلح في أن أقتل هذه الرغبة فيه أو أن أحبطه ذلك أنني فعلا لم أكن أملك قوت يومي في غالب الأحيان فما بالك بدفع ثمن غذاء به أكثر من خمسة أنواع من الأسماك ؟!

كنت أشعر بالضالة يوما عن يوم . فصل الصيف كان يمر علي كأنه عام كامل من شدة العذاب النفسي و الإحساس المرير بالنقص أمام كل هؤلاء المترفين الذين يعودون من أوروبا و بشرتهم قد ازدادت بياضا و آثار النعمة بادية عليهم . بل إنهم كانوا لا يكفون عن إثارة ذهول أهل الحي عندما يتحدثون بالفرنسية و هم يتعمدون الظهور بمظهر المعتاد على أمور كهذه. ماذا أقول لهؤلاء ؟ أنا كاتب ؟! لن يلتفت أحد إلي لأن الترمومتر الوحيد الذي يقيسون به الإنسان هنا هو المال. ناهيك عن أنني الوحيد ربما الذي لا زال يعتبر أن القراءة هواية محترمة ربما في مدينتي كلها. أما الآخرون فلا يعنيه كل هذا . كن ما شئت و اكتسب مالا .. يغنيك كثيره عن العتاب.

العتاب الذي أحاط بي من كل ناحية و كل المقربين يستغربون لأنني لم أسافر بعد . حاولت إقناعهم غير ما مرة أنني أعشق مدينتي و أنني – كمبدع – أستمد إلهامي منها . ثم إنني أرى أن سلبيات الغربة أكثر من إيجابياتها. إنك مجرد "سايكوباتي" حاقد !

هذا ما كان يقوله لسان حالهم عندما أسرد أعداري. كان كل هذا قبل أن أتعرف على (ديانا) . جاءت ذات صيف لتقضي عطلتها مع صديققتها سعاد ، ابنة عمتي. و لم يتطلب الأمر وقتا طويلا ليدرك الجميع الحقيقة : إن ديانا مغرمة بعدنان.

لا أنكر أنني شعرت بالفخر ، ذلك أن الكثيرين حاولوا نسج شباكهم حولها فلم يفلحوا. أيضا، أمتلك الشجاعة لأقول أنني غير وسيم بالمرّة ، لكن لم يبد على ديانا أنها تعاب بهذا توافه . قالت لي أنها تتمنى أن تكون كاتبة مثلي ، و أن والدها فرض عليها أن تدرس التمريض و إلا قطع عنها مصروفها الشهري .

كان حفل زفافنا سريعا لأننا كنا سنسافر في الغد إلى النمسا . نظرات الحقد كادت تلتهمنا . نظرات الغباء الحائر أيضا : ألم تكن تقول أنك لن تغترب ؟ بل سأغترب ، فقط كي أعرف أهو نعيم حق هذا الذي تعيشونه أم أنكم تكذبون.

مرت أربع سنوات . أدركت بعدها أنني قد خدعت . لا شيء هنا سوى الركض خلف المال و لا شيء غير ذلك ..عذاب و مذلة حقيقيين .. سيارات تشتري بالقروض ليذهب بها أصحابها إلى المغرب ثم يبيعونها عندما يعودون . ديانا كشفت عن وجهها الحقيقي . كم مرة اتصلت بي لتقول لي أن صديقها دعاها للعشاء و أنها تعتذر عن المبيت في منزلنا ؟ كم مرة طلبت مني أن نذهب بوالدتي إلى دار العجزة ؟ كم مرة هددتني بضرب نفسها ثم رفع قضية علي إن أنا حاولت رفع صوتي في وجهها ؟

كل من أعرفه كان يعيش وضعاً مشابهاً . لماذا – إذن – تعشمون أولاد بلدكم في الاغتراب أيها الأوغاد ؟

لم أكن أدرك أن عقدة نقص كهذه من الممكن أن تتحول إلى رغبة في الانتقام و التشفي دون أدنى سبب .

أدرك – الآن – أنني كنت أعيش في نعمة لا مثيل لها . ألا يكفي أنه لا يمكنك هنا الخروج للتسكع في حيك بعد العاشرة ؟ فما بالك بالسمر مع الأصدقاء ؟ أي عيشة هذه ؟

رغم أن عملي كساعي بريد كان يدر علي دخلاً لا بأس به إلا أنني كنت أكاد أموت من شدة الإرهاق و الاكتئاب أمام ضغط العمل و الجو البارد الذي قلما يتجاوز درجة الصفر .

كم أشتاق إليك يا طنجة ! أحضنيني و دعيني أمد قدمي في أحياك و ألهو و أكل الفول السوداني تحت سمائك الدافئة اللذيذة .

فعلتها أخيراً .. عدت إلى بلدي . بعد مفاوضات ماراتونية مع ديانا من أجل الطلاق و إجراءات أخرى لا تحصى عدت إلى الحبيبة .. إلى طنجة .

و اليوم ، بعد أن عرف الجميع قصتي .. عندما يعودون صيفاً يأتون لزيارتي و يشكون لي من مرارة الغربة و قسوتها التي لا ترحم .

امراة مجنونة لا تحبه

لم أتمالك نفسي و أنا أحتضن زوجي و أقبل وجهه الملتحي ألف مرة .بصراحة،كنت أتوقع أن يفعلها بعد أن استخدمت كل أسلحتي الفتاكة : دموع، حزن ، احتياج. منذ شهور و أنا أقول له أنني أشعر بالملل عندما يخرج هو إلى العمل و أبقى وحيدة بالبيت . مرت خمس سنوات منذ زواجنا دون أن نرزق بطفل . لم يتحدث هو عن الأمر

و ما كنت أنا فاعلة . كل منا لازم بالصمت باعتباره الملاذ الوحيد في هكذا موقف. لم يكف الآخرون / الجحيم عن الثرثرة و الحديث عن زوجة ثانية له ، و عن طلاق و انفصال ثم زواج آخر لي. لكننا لم نلتفت إليهم و لا إليهن . يوسف يحبني و أنا أحبه و مجرد تصور حياة أحدها دون الآخر مسألة تكاد تكون مستحيلة.

كان يوسف يفهقه و هو يحتضنني بدوره قائلاً :

هيا ، لا تكوني طفلة . هذا ليس وقت الدموع ، ساعديني لنجد له مكانا بغرفة نومنا.

لم أنتبه أن الدموع قد رافقت فرحتي . قلت :

هه !! أنت تعلم أن النساء يجدن لذة عظيمة في البكاء فلا داعي للتذكي.

كنت سعيدة . إن وجود حاسوب و "إنترنت" بالمنزل كان مطلبي من مدة لكن يوسف كان يتحجج بضيق ذات اليد كما يهوى كل الرجال أن يفعلوا. البارحة قررت أنه لا بد أن ينصاع لما أطلبه . الكتب التي قرأتها عن طرق إقناع الرجال لم تكن ذات جدوى . لذا قررت أن أستعمل ما تعلمته من مدرسة الحياة و من سنواتي التي عشتها مع يوسف.

عندما هممنا بالنوم و قبل أن يطفئ هو النور بادرته :

- يوسف ، هل تحبني حقا ؟

- لا، لقد تزوجتك لأنني لا أجد شيئا آخر أفعله.

- أرجوك ، أجبني بجدية ..

- حسنا، ما دام ذلك سيرحك . أنا لم أحب و لن أحب غيرك و أن تعلمين هذا جيدا.

بداية جيدة . هكذا قلت لنفسي.

- و المحب ألا يبحث عن إرضاء من يحبها ؟

- هذا أمر حتمي .

- إذن فأنت لا تحبني !

و هنا جاءت أهم لحظة و كان لا بد من إتقان المشهد . انهزتُ باكية وأنا أدفن وجهي بين كفيّ. لم أجد صعوبة في فعل ذلك. النساء يحببن البكاء مثلما يحب الرجال كرة القدم. لكنني قلما أبكي أمام يوسف حفاظا على هذا السلاح المؤثر من أجل ساعات مصيرية كهذه.

حاول يوسف بعدها أن يتقرب مني و أن يوقف دموعي لكنه فشل . كان يعرف ماذا أقصد .. فهي ليست المرة الأولى التي نتحدث فيها في الموضوع. كان يقول أشياء

كثيرة عن ظروف العمل و الراتب الذي يكفيننا بالكاد لكنني لم ألتفت إليها . لقد بدأت اللعبة

و سأواصلها حتى النهاية و أي تراجع الآن يعني أنني لن أحظى بجهاز الحاسوب إلا في القرن الخامس و العشرين.

بعد أن مارست ماشوسيتي حتى النهاية ، جاء الوقت لإرضاء ساديته . استلمت لذراعيه و أنا لا زلت أنهنه . كم هو قوي ضعفنا نحن النساء !!
لم يعدني بشيء و أنا لم أواصل الحديث عن الموضوع . لكنني بدأت أخطط للمكان المناسب لوضع الحاسوب و رأسي فوق صدره بينما قال هو محاولاً أن يكسر حاجز الخلاف :

- ألم تلاحظي أنك ملأت قميص نومي بالمخاط و الدموع ؟
ثم إننا انفجرنا ضاحكين . و بصعوبة بالغة منعت نفسي من الانحناء لتصفيفات الجمهور .

* * *

- صباح الخير .
- صباح الورد، هل اشتقت لي؟
-
- أعتذر منك ، لكنني بصراحة لم أستطع النوم البارحة من كثرة التفكير .
- التفكير فيم ؟
- التفكير بك ، لأول مرة أجد امرأة بهذا الذكاء و التفهم .
- ربما فقط لم تبحث جيداً .
- بل بحثت و فشلت .
- أنت لست متزوجاً إذن كما قلت البارحة؟
- لا ، و لا أريد أن أفعل .. أبحث عن امرأة مجنونة لا تحبني .
- أنت شاعر إذن ؟
- مادمت فهمت قصدي فأنت الشاعرة الحقة .
- إلى اللقاء الآن . أعتذر .

* * *

كانت هذه المرة الثانية التي أرددش فيها معه . شاب في الخامسة و العشرين هو . يبدو ذكياً و مثقفاً . الشعور بالذنب يكاد يقتلني . يوسف لا يعلم أنني أرددش مع أحدهم . ماذا لو علم؟

قالت لي مريم أن "الدردشة" هي الأكثر تسلية في عالم الإنترنت . لم أطاوعها في بادئ الأمر لكنني انصعنت لها مؤخراً و هي ترشدني إلى خطوات التسجيل في أحد مواقع الدردشة ، و ها أنا الآن أكاد أكون مدمنة على الأمر .

* * *

- هل يمكن أن نلتقي غدا ؟
- إذا لم تتوقف عن هكذا طلبات فسأوقف الجهاز الآن .

- لا بأس لا بأس .. كما تريد ، لكنني في حاجة على الأقل لرؤيتك . لا أعتقد أن الأمر صعب إلى هذه الدرجة .
-
- هه ؟ ماذا قلت ؟
- هل تعرف محل (...) التجاري ؟
- طبعاً أعرفه .
- سأكون هناك بعد ساعة .
- و كيف أستطيع التعرف عليك ؟
- سألبس جلباباً تقليدياً أحمر اللون .
- و أنا
- لا ، لا داعي .. يكفي أن تراني أنت . و لكن إياك أن تحاول محادثتي . إتفقنا ؟
- إتفقنا .

* * *

كنت متوترة جداً . يوسف لن يعود قبل السادسة و يمكن أن أذهب فعلاً و أعود دون أن يعلم . تساءلت ألف مرة إن كنت أنا هي أنا التي أعرفها . هل أنا من يفعل هذا ؟ مرت الساعة بسرعة . كان الجلباب الأحمر موضوعاً بقربي . وضعت يدي فوقها . سحبتها .. وضعتها مرة أخرى . نظرت إلى الساعة من جديد . و في تمام السادسة كنت أملاً معطف يوسف بالمخاط راجية إياه أن يقطع الاتصال بالإنترنت إلى الأبد ، و أن يبيع جهاز الحاسوب إن أراد .. بينما كان يقول - هو - أشياء عن المرأة التي تبكي عندما لا تجد شيئاً آخر تفعله .

راشيل

غزة . 15 مارس 2003.

عزيزي بيتر ،

أفترض أنك الآن - كعادتك - تطعم حماماتك التي تعشقها حتى النخاع، و التي كنت أغار منها كثيرا. بحساب فارق التوقيت أعتقد أنني لم أحد عن الصواب في قلبي هذا. أكتب لك الآن من بيت فاطمة. كم هي جميلة !! فاطمة هي واحدة من الصديقات اللاتي تعرفت بهن هنا. صدقني يا بيتر إن قلت لك أنني لأول مرة أدرك معنى أن تعيش في رفاهية . ما هي الرفاهية بالنسبة لنا ؟ هي أن نمثل أكثر من بيت و أكثر من سيارة و لا بأس بفيلا محترمة و رصيد دسم في البنك يجعلك لا تتشأم كثيرا تجاه الأعوام العشرة القادمة. أتذكر حلمنا بأن يكون لنا بيت جميل يجمعنا و أن يكون لدينا أولاد لطفاء يصرخون في الثالثة صباحا و يلطخون ملابسنا بالشيكولاتة و الهامبورجر.

هنا يبدو كل ذلك ترفا ، الرفاهية هنا تتلخص في كلمتين : الوطن و السلام. البارحة قالت لي عائشة ذات الأربع سنوات أنها تحبني لأنني لست مثلهم . قلت لها أنه هناك الكثيرات و الكثيرون مثلي لكن لا أحد يتركنا ندرك شيئا في هذا العالم المليء بالأوغاد. عائشة تملك أجمل عيون رأيته في حياتي . عندما تنظر إلي في براءة و أنا أكل معهم طعامهم الذي أحبه، و الذي تلتف حوله الأسرة في جو لا نجرؤ على الحلم به نحن بسبب ماديتنا المفرطة. عندما تفعل ذلك أشعر برغبة في البكاء. لا أدري لم . هو نفس الشعور الذي انتابني عندما كنت أودعك في المطار وأنت تتحاشى النظر إلي و أنت توصلني بسيارتك الصغيرة (ألا زالت تأبي المسير إلا بعد ركلها ؟) . كانت أول مرة أعرف فيها أنك تعرف حقا كيف تبدو قاسيا عندما تريد ذلك.

عزيزي بيتر ،

أعتذر منك، مرة أخرى ، لأنني لم أطاوعك فيما طلبت . المسألة أكبر مني ، صدقني. أن تساند قضية بالقول ، هذا شيء. و أن تفعل شيئا من أجلها ، فهذا شيء آخر . هنا يوضع المرء أمام الاختبار : هل أنت مؤمن بما تفعل أم أنك مجرد هرطيق يحلو له أن يثبت للآخرين أنه ذو قضية و أنه ثائر بالفعل لدرجة أنه لا يجد الوقت ليصلح سرواله ؟

و أنت أكثر من يعرف أنني لم و لن أكون من الفئة الثانية و إلا ما كنت لتحبني. أدرك جيدا أنك - و أنت تترجاني أن أبقى - كنت تتمنى في أعماق أعماقك ألا أفعل كي أبقى في نظرك راشيل التي أحببتها بصدق.

الليلة قبل البارحة هدموا منزل ليلي و أحمد المتزوجين حديثا . هكذا بكل بساطة . تخيل أن يحدث معك هذا ! يأتي شخص أجنبي و يجلس في بيتك و هو يداعب أنامل قدمه و كأنه في بيته هو . ثم لا يكتفي بهذا بل يطلب منك أن تغادر الصالة و عندما

تدخل غرفتك يهدمها فوقك أمرا إياك أن تغادر البيت كله . بأي حق ؟ لا أحد يعلم للأسف.

لو رأيت منظر ليلي و هي تبكي بعد أن هدموا بيتها و النظرة التي كانت في عيني أحمد !! صدقتي لقد كان جريحا . لكنه أيضا كان أسدا . أسد جريح إن جاز القول . أعلمك أنني أرسلت رسالة أخرى إلى والدي الغاليين وأتمنى أن تصلكم الرسالتان في وقت واحد.

هناك جرافة تواجه بيت فاطمة، و من المحتمل جدا أنها تتوي هدم البيت . منذ يوم كامل و هي تقف على بعد أمتار . أعدك أن هذا لن يكون إلا على جثتي . سأتركك الآن منتظرة رسالتك القادمة فمن الواضح أنه أمامنا عمل كبير هنا و تضحيات أكبر لن تسمح لي بكثير كتابة . أستودعك الله.

راشيل التي تحبك .. إلى الأبد.

رهان خاسر

أنت تراهن على حصان مريض بكل علل الدنيا . هذا ما قاله لي أبو مروان ، و ما قاله آخرون لم يكن عن نفس المعنى ببعيد . إن الرجال الذين لا يكفون عن الشكوى في سيارات الأجرة و أمام جدران بيوتهم هم إلى النساء أقرب . كان هذا رأيي الذي خلصت إليه لذا أخبرت كل أصدقائي بالحي أنه حان الوقت لتكوين جمعية تهتم بشؤون الحي . قليلون هم من أبدوا اهتماما بالأمر أما الآخرون فكانوا غير مكترئين بالمرّة ، لكأنني أحدثهم عن مشاكل الطلبة الماليزيين في جامعات سنغافورة . كنت أعلم أنني سأواجه هكذا صعوبات في البداية . كانت مسألة إقناع القلة القليلة تتطلب هي أيضا مجهودا كبيرا .

- لا يمكن أن نطلب من المسؤولين أن يفعلوا من أجلنا كل شيء، إن كنا نحن نفسنا لا نحرك ساكنا .

- إنه واجبهم، و من المفروض أن يؤديه على أكمل وجه .

- و ما دورنا إن لم يفعلوا ؟

- الدعاء عليهم .

- بل إنها لذة النوم التي ما بعدها لذة .

- ثق بي ، لن تغير شيئا .

- بل سأفعل ، و سأحول ثرثرائنا السابقة إلى شكاوى مكتوبة أقض بها مضجع كل مسؤول .

- سيبقى كل شيء على حاله، و كل مسؤول في مكانه حتى و إن استعملت كل مداد الدنيا لشكاياتك .

- لو أصلح كل واحد نفسه، ثم حيه فسيتساقط الفاسدون كأوراق الخريف .

- سترونه ما بين أقدامي كأوراق الخريف .

انفجر الجميع ضاحكين . بينما وضعت أنا فنجان قهوتي السوداء فوق المائدة و ابتسمت معلنا أن وقت الاستسلام لم يحن بعد .

كان الإرهاق يكاد يقتلني و أنا أتحرك هنا وهناك و أحاول إقناع العدد الكافي من الأشخاص لتكوين الجمعية قانونيا .

نجحت أخيرا . حينما الآن لديه جمعية تدافع عنه . طبعاً جاءت النساء منذ أول يوم يطلبن معونات مادية : واحدة تدعي أن ابنها في السجن و أخرى أن زوجها مريض ... إلخ .

لم أتفاجأ . كنت أعلم أن هذا سيحدث . بلباقة أفهمت أهل الحي - و أغلبهم أميون - أن هذا ليس دور الجمعية في الوقت الحالي . الكثيرون امتعضوا عندما قلت ذلك . البؤساء يرون في كل عمل يقوم به الآخرون أملا . أينك أيها الفقر لأقطع رأسك ؟ الاجتماع الأول الذي سنعقده كان هدفه تحويل المناطق المليئة بالأزبال في الحي إلى مناطق خضراء . كنت شغلة من النشاط و أنا أجهز قاعة الاجتماعات و التي لم تكن سوى صالة منزلي التي ملأتها بكراسي استأجرتها في هذا الصباح و سأردها غدا صباحا .

ما أجمل أن تدافع عن قضية معقولة دون البحث عن قضايا لا تعنيك لتتبنها لمجرد أن تشعر بأنك رجل ثائر حقا لا يملك الوقت كي يحلق لحيته .
- علينا أن نتعلم احترام الوقت .
هذا ما قلته لهم و نحن نمهد لعقد هذا الاجتماع .
- في الخامسة بالضبط سيبدأ و أي تأخر سيدل على أن صاحبه شخص مهمل .
كانت الساعة تشير إلى الخامسة إلا خمس دقائق . لا بأس .
الخامسة مساء و دقيقة . لم يحضر أحد لحد الآن . سأحاسبهم على هذه الدقيقة .
الخامسة و خمسة عشرة دقيقة . الغائب حجته معه .
السادسة مساء . لم يحضر أحد .
السابعة مساء . دقات رتيبة أصدرها أنا بالقلم فوق المائدة . دموع حبيسة في مقلتي .
وقفت قرب النافذة متأملا الشمس و هي تغوص خلف البيوت آذنة للقمر أن يحل محلها بابتسامته السمجة .
و أنا أعلق في شباك نافذتي منديلا أبيضاً ، لاحظت أن أوراق الشجرة المجاورة لبيتي كان تتساقط رغم أن فصل الصيف على الأبواب .

حديث المقهى

قالت له : لقد تزوجت المطربة (دال) البارحة.
أجاب : لا زلت تهتمين بالتفاهات .
قالت : إنها تبدو لك كذلك أما أنا فتلك المطربة تعني لي الكثير، إنها تتحدث بصوتي في كل ما يحدث لي كأنها تعيش معي، ثم إن قصة شعرها تبهرني.
قال بتأفف : أرجو أن تتوقفي عن الحديث عنها هناك أمور أهم ... ألم تعلمي أن اللاعب (راء) قد أصيب و لن يلعب لمدة سنتين .
صمتا معا . في حين كانت كان المذيع يقول كلاما عن حرب محتملة و أشياء أخرى لا تعني أحدا في شيء .

أشياء تحدث !

البارحة طلبت منك ببساطة أن تكتب لها على الورق . هي لا تستسيغ رسائلك الأخيرة المطبوعة من خلال الحاسوب . المشكلة أنك لم تعد تستطيع الإمساك بالقلم ، حتى في إبداعاتك تفعل ذلك .. يبدو لك الأمر مرهقا : الكتابة على الورق ، ثم الكتابة على الحاسوب من جديد إن تطلب الأمر إرسال ما كتبت إلى جهة ناشرة ما . - رسائلي لا علاقة لها بذلك .

لا إجابة لديك على كلماتها سوى : لا أستطيع . ليتها تفهمك . ليست المسألة تعنتا و لا عنادا غير ذي معنى . إنها مسألة تعود ببساطة . كونك لم تعد تكتب بالقلم هذا لا يعني أنك أصبحت شخصا آخر . هو مجرد اختلاف في طريقة نقل المشاعر .. من الورق إلى الشاشة . هذا كل شيء . تقول - هي - أن الكتابة بالقلم تفضح المشاعر . كل خربشة ، كل كلمة لم تترك و شطبت عليها ، كل نزول عن السطر ، قالت أنها ترى فيه ألف معنى و تتلذذ برؤية تعرجات خطك و هو يصعد و ينزل مع مشاعرك .

ربما يكون ما قالته صحيحا ، لكنك تعجز لحد الآن على مطاوعتها . كلما أمسكت بالقلم و حاولت البدء في الكتابة تجد أن الأفكار قد حملت عدتها و سافرت بعيدا و لا تجد أمامك سوى أصابعك المشدودة ، المتألمة بدون جدوى . على العكس مما يحدث أمام الشاشة حيث تتساب أفكارك كشلال و تجد أنك قد كتبت - أحيانا - قصة كاملة في دقائق . تحويل الأفكار يتم بسرعة كبيرة كما أن تصحيحها لا يتطلب سوى ضغطات على زر "إمسح" لتجد أن الجملة التي كانت ركيكة قد أصبحت أفضل .

و ها أنت ، كما تعودت مؤخرا ، تكتب الفصل الخامس من آخر رواية لك ، و التي اخترت لها عنوان : "أشياء تحدث" . كم هي انسيابية هذه الأزرار كما الأفكار .. تكتب و تكتب .. بكل سرعة و بساطة تكتب .. لا حاجة لا إلى ورق و لا إلى قلم يرهق الأصابع إرهاقا .

ظلام ...

ماذا حدث ؟

ببساطة انقطع التيار الكهربائي . و أفكارك ؟ و آخر ما كتبت ؟ لعل هذا الإصدار من البرنامج يسترجع آخر ما كتبت .. نعم ، هو يفعل ذلك بالتأكيد . و يعود التيار . تضغط على الزر .. لا استجابة .. الشاشة ؟ في حالة جيدة على ما يبدو .

* * *

يقول لك التقني دون أن يكلف النظر نفسه النظر إليك :

- لا أمل في إصلاح الجهاز .. لقد حوله انقطاع التيار المفاجئ إلى مجرد قطعة بلا معنى . لكن لا تقلق يمكن أن أجد لك جهازا جديدا بثمان جيد .

مشاعر غريبة تجتاحك .. هل تضحك ؟ هل تبكي ؟ ماذا ستقول هي لو علمت
بالأمر ؟ أكيد أنها ستشمت رغم أن هذا ليس ديدنها .رواية كاملة تذهب في رمشة
عين ؟ ليال كثيرة و جمل إبداعية منتقاة و أفكار لحظية لا يمكن أن تتكرر ..
تتساءل :

- و روايتي ؟ و أفكاري ؟ من يردها ؟
يجيبك من جديد بنفس اللامبالاة و البرود :
- لست الأول و الأخير .. إنها أشياء تحدث .

لماذا فعلتها ؟

- حتى أنت يا عبد الفتاح !!
قاتلها مثل يوليوس قيصر و أنا أتلقى الطعنة القاسية في ظهري ، لكنني لم أمت
مثلما فعل. رغم أن الطعنة كانت نجلاء بالفعل ، لكنها لم تكن لم تكن قاتلة لحسن
الحظ.

لم فعلتها ؟ ولماذا تركت كل فتيات الدنيا و اخترت نجلاء - ابنة خالتنا - دونا عن
فتيات الدنيا لتحبها و تجعلها تحبك ؟! كم كان وقع الصدمة قاسيا علي . في بادئ
الأمر اختلط علي المشهد و حاولت أن أنظر إليه من عدة زوايا غير الزاوية التي
رأيتها منها ، لكنني فشلت . أي مشاعر كانت تحمل عيناكما معا و أنتما تنتظران إلي
بعد أن ضبطتك متلبسا تمسك كفها بحنان و هي تنظر إليك في وله ؟!

لم فعلتها ؟! أستحلفك بالله أن تجيب .

كم مرة سهرنا معا و أنا أحكي لك عنها و عن حبي لها و حبها لي .. كم مرة
اقتربت علي أفكارا كثيرة لحل مشاكل العابرة معها؟ كم مرة أقسمت - أنت -
بأعظ الأيمان أنها تحبني ؟ و كم مرة صدقت أنا - الغر - دون أدنى لحظة شك كل
ما قلته ؟

أنت أيضا كنت تحكي لي شيئا و كنت أفعل معك الشيء نفسه .. كنا كروح
واحدة ، أو هكذا كنت أتوهم . أحكي لك و تحكي لي . أواسيك و تواسيني . أشجعك و
تشجعني . أثق بك و ... تخونني ؟!!

تخونني يا عبد الفتاح و أنت صديقي - و ابن خالتي - مذ تعلمنا نطق أول حرف ؟
كان المكان مظلم لكن ظلام الخيانة كان أكبر . كم ظللت مسمرا أنظر إليكما بذهول
؟ هذا ما لا أذكره بالضبط. لكنني أتذكر جيدا أنك حاولت أن تبتسم و أنت تقول
كلمات مبعثرة لم أفهم منها شيئا . في حين كانت نجلاء أكثر واقعية منك . طأطأت
رأسها

و كأنها تنتظر أن ينتهي هذا العبث بسرعة و تواصل معك ما كنتما بصدد . الله كم
كنت جائرة !! حاولت أن أقول شيئا يكون ذا معنى ففشلت . ثم إنني انسحبت قبل أن
يحدث ما لا يحمد عقباه .. و ما هو هذا الذي لا يحمد عقباه ؟

أن أبكي مثلا ؟ هو ذاك .. فقد كنت أضعف من أن أقوم بأي رد فعل آخر أقوى.
ليلتها بتّ أنقلب في فراشي و كأني مصاب بحمى المتنبى . شحذت آلاف السكاكين ،
و ملأت مئات المسدسات بالرصاص ، و ارتكبت ثلاثمائة و واحد و عشرون
جريمة . كنت أغفو أحيانا ثم أصحو لأجدني أكاد أمزق الوسادة بقبضة يدي و لا

سكاكين و لا رصاص و لا جرائم هنا. ألم أقل لك أنني أضعف من أن أفعل هكذا أشياء ؟

لكنك لم تجب : لم فعلتها ؟!

تمر ذكرياتي معها في ذهني . كل لحظة ، كل همسة ، كل كلمة . هل كانت فعلا قادرة على خيانتني بهذه البساطة ؟ و لماذا لم يخطر ببالي أن أفعلها أنا يوما قبل أن تتعشى بي هي ؟

لا أذكر أنها رأت مني يوما سوءا ، لكنني – أعترف- كنت مخطئا في شيء واحد و إلى أبعد الحدود : لقد أحببتها . و قد كانت هذه جريمتي الوحيدة التي لم أغفرها لنفسي. الحب ضعف ، لكنني لم أكن أعبأ بهذا وقتها. و عندما تحس الواحدة منهن أنك تحبها تبتدأ معك لعبتها الراقصة على حبال الموت :

- هوووب .. هيا ، حاول تجاوز الحبل .. جيد، أنت في أمان الآن بين ذراعي .. ها أنا في الجهة الأخرى .. حاول مجددا أن تلحق بي .. أحسنت .. إنك فارس أحلام لا يشق له غبار .. لكن ، لا بأس بمحاولة أخرى .. هيا .. إنني أنتظرك .. هوووب.. و إلى الهاوية ..

كان يجدر بك أن تكون هناك يا عبد الفتاح كي تلتقطني أو نقضي معا، لكنك كنت تطل علي من مخبئك من فوق و قد أمسكت كفها .

* * *

كم كان عمرنا آنذاك يا صديقي ؟

نعم نعم . ثلاثة عشر عاما بالضبط ، أنا كنت أسبقك بشهرين . كم هو لذيذ حب المراهقة ذاك بكل عذابه و نزواته الخرقاء . عندما تقسم أنك ستنتقم من هذا العالم و ستريهم من أنت . من هم ؟ لا أحد يعلم لحسن الحظ.

- هيا يا نجلاء ، أسرع بالغذاء . إن ضيفينا عبد الفتاح و زوجته شيماء يكادان يموتان جوعا.

وفي انتظار ذلك أدن برأسك مني يا عبد الفتاح و دعني أسألك :
لماذا فعلتها ؟

مخاض

أخيرا تحقق ما رجوته : إتصل بي رئيس تحرير مجلة (ميم) و قال لي أن مجلته تريد اعتمادي ككاتب عمود ساخر . لم أسأل كثيرا عن التفاصيل .. كان لساني يلهج بالشكر و بالعبارات المؤدبة الودود التي تدل على أنني كاتب محترم بالفعل ، لكنني – أيضا – نجحت في استدراج رئيس التحرير كي يتحدث عن المقابل الذي سيدفعه لي. قال لي أن مجموع ما سأكتبه هو أربعة أعمدة في الشهر أي – كما قال – 400 دولار شهريا ترسل لي عبر حسابي البنكي.

هو – المسكين – لا يعلم أنني لا أملك حسابا بنكيا و أنني تعشيت البارحة ببضع كعكات أهدتها لي جارتني العجوز بكل احتفالية . لم أخبره بكل هذا طبعاً. إن الكتاب الذين لا يملكون حسابا بنكيا هم كتاب غير مرغوب فيهم بالتأكيد . لا وقت للجريدة كي تبحث عن الطرق المثلى لإرسال راتبي.. لست مارك توين على أية حال. نظرت إلى الغرفة التي أكرتها في الطابق الأخير نظرة شاملة . لأول مرة أكتشف أنني مهضوم الحق فعلاً. كيف لكاتب مثلي أن يعيش هكذا وضع ؟ لم يكن بالغرفة سوى دورة مياه و بروز إسمنتي صغير ينوب عن المطبخ، أما سريري فكان عبارة عن ملاءات فوقها ملاءات مرتفعة بقليل عن الأرض. في كثير من الأحيان كنت أشعر بالبرودة تتسرب إلى ظهري فأتقلب ذات اليمين و ذات الشمال متخذاً الغطاء كشرنقة علّ ذلك يخفف من قسوة الأرضية العارية إلى من زربية مهترئة تذكرني بسجون الأفلام العربية.

ربما جاء الوقت لتوديع كل هذا البؤس و اكتراء شقة محترمة تليق بكاتب ساخر . كاتب ساخر ؟ من أطلق عليك هذا الاسم ؟ من قال لك أن ما تكتبه لا يتعدى نكتاً مترهلة يستطيع أي طفل في المرحلة الابتدائية أن يروي أفضل منها ؟ لكنهم نشروا كتاباتك غير ما مرة و في منابر محترمة بالفعل . ربما أن الألوان لتكتسب شهرة أكثر و ليصبح لديك قراء عبر العالم يرسلون لك رسائل عبر البريد الإلكتروني و يقولون لك أنك لطيف بالفعل. نعم ، كان لديك عشرات من القراء عندما كنت تكتب بمجلة (س) المحلية، لكنهم لم يكونوا قادرين على أن يحضروا لك كعكات كي تتعشى بها . ما معنى وجود قراء دون وجود ما يسد الرمق ؟

الآن ستكون مكتفياً من الناحية المادية و ستتعامل مع قرائك بصفته ذاك الكاتب الذي يفهم في كل شيء، و لا يعوزه شيء. عندما قال لك (ياسين) أن الإبداع لا يقدر بثمن و أنه يفضل أن يحتفظ بكتاباته لنفسه على أن يتقاضى أجراً على ما يكتبه. تذكرت – لحظتها – عبارة عادل إمام أن "العلم لا يكيل بالبالذنجان" ، و كعادته انسحب ياسين غاضباً عندما قلّتها له . لكنه قال قبل أن يغادر : " أنت تحاول أن تسخر كي تهزم هزائمك ". كم كان قاسياً !!

ها هو ذا هدوء الليل قد أقبل ، و عليك أن تطرد كل ما قد يشئت تركيزك من أفكار

" أعترف لكم "

نعم ، هي بداية لا بأس بها لعمود ساخر . ماذا أضيف ؟

" أعترف لكم أن ... "

لا..لا.. لا تبدو عبارة مشجعة على متابعة القراءة .

" أقر أيها القراء ... "

تبا !! أين هي تلك الأفكار التي كانت تجتاح ذهنك بالآلاف ؟ أين هي عباراتك اللاذعة التي لا تكف تلقوها بين أصدقائك ؟ أين هو نقدك لظواهر المجتمع المضحكة/المبكية ؟

أهي صعبة إلى هذه الدرجة عملية كتابة عمود ؟

حاول التركيز مجددا ..

" أعترف أنني ... "

بماذا ستعترف ؟ و لماذا لا بد أن تبدأ بهذه الجملة ؟ لماذا هذه الرغبة الجامحة في الاعتراف بشيء ما ؟ ثم لم كل هذا البحث عن الكلمات الرنانة – التي لم تحضرك أيها لحد الآن - ؟

لم لا تكتب مثلما كنت تكتب لنفسك و في أوراق "الكليנקس" و أوراق الدفاتر الرخيصة ؟ هل لأنك تكتب في ورق خاص ستبحث له عن كتابة خاصة ؟ هل لأنك ستتقاضى مكافأة تخشى ألا يرضى رئيس التحرير عما ستكتبه؟

تتذكر – الآن – ما قاله ياسين لك . أكان محقا ؟

تحمل في يدك – بلا مبالاة – كتابا ل (باسكال) فتقرأ له عبارة الافتتاحية : "

عندما نقرأ أسلوبا طبيعيا تأخذنا الدهشة و النشوة ، لأننا نتوقع أن نجد كاتباً فإذا بنا نكتشف إنساناً".

تقرأ العبارة مرة أخرى . تقولها بصوت مرتفع . تبتسم . تمسك القلم . تبدأ عمودك بتلك الجملة ، تاركاً للقلم أن يلهو كما شاء بعدها .

هروب

(1)

كان لزاما علي أن أفعل ذلك : أن أمزق كل أوراق هويتي، أن أتخلص من ما ثقل وزنه

و غلا - أو رخص - ثمنه. هذا ما أمرنا به " السي عبد الحق". امتثلنا جميعا لأمره. كنا حوالي خمسة و عشرين شخصا بيننا أربعة نساء إحداهن كانت حاملا. كل الوجوه بدت لي بائسة إلى أبعد الحدود. أتراها - ملامح البؤس - تبدو جليلة على وجهي أيضا؟

كان البحر هادئا و الأمواج تتكسر برفق قرب أقدامنا و كأنها لا تعلم ما نحن بصدد الإقدام عليه. كنا صامتين كأسمك هذا البحر، أحيانا كان البعض منا يتبادل حديثا هامسا. مجرد كلام بدون معنى و ثرثرة لا داعي لها أبدا. الصمت هو البلاغة الوحيدة في هكذا موقف.

غاب السي عبد الحق لدقائق ثم عاد و هو ينظر في كل الاتجاهات و كأنه لص فر من السجن لتوه. قال لنا أن القارب سيأتي بعد دقائق و علينا أن نستعد . بدأت حركة خفيفة متحمسة تسري بيننا كادت تتحول إلى صخب قوي لولا أن السي عبد الحق - الأمر الناهي هنا - صرخ فينا بصوت كالفحيح أن اصمتوا ، و أن لعنة الله على الجميع.

تبا ! هل يعرف هذا الرجل شكل حرف الألف ؟ هل يفرق بين الواو و العصا ؟ لكنه يملك الآن سلطة تجعله ينهرنا جميعا . سلطة جعلته أقوى مني أنا المجاز في الأدب العربي.

تأملت وجهه لهنيهة ، كانت هناك نظرة حزن في عينيه لم تنجح محاولته في التظاهر بالقسوة في إخفائها. هذا الرجل يعاني حتما.. هذا ما قلته لنفسي.

تكدسنا في القارب جميعا كسمك سردين في علبة معدنية. قال لنا السي عبد الحق أنه ، تعاطفا منه ، لن يقوم بتكبير أيدينا خلف ظهورنا رغم أنه يفعل ذلك مع الجميع . سمعت عبارة شكر أو اثنتين لم يبد على عبد السميع أنه قد اهتم بها أو بالرد عليها و هو يجهز محرك قاربه للانطلاق . بدا هدير المحرك كالزئير و خيل إلي أنه - وسط هذا الصمت - لن يكون من الصعب على سكان المقابر أنفسهم أن يسمعوننا، فما بالك بحرس السواحل ؟ لكن نظرة واحدة إلى وجه السي عبد السميع كانت كفيلة بجعلك تشعر بالاطمئنان و الثقة .. إن هذا الرجل يعرف ما يفعله .

لم أدر كم مر من الوقت و نحن لا نسمع سوى صوت المحرك و أصوات أنفاسنا التي تتردد حاملة معها مئات المشاعر . فجأة سكنت كل الأصوات كأنما اتفقنا على ذلك، كلنا حبسنا أنفاسنا و توقف هدير المحرك تماما . لم يكن كل هذا دون سبب ، كلنا رأينا تلك الكشافات التي تلقي بدوائرها المضيئة بالقرب منا . في صوت هامس قال عبد السميع أنهم خفر السواحل الإسبان و أمرنا بخفض رؤوسنا جميعا . فكرة

غبية ، هذا ما قلته لنفسى و أنا أمتثل لأمره ، خفض الرؤوس لن يفيد في شيء لو وقع الكشف فوق القارب . إن قارباً خالياً يثير من الشك نفس ما يثيره قارب ممتلئ بمرشحين للهجرة السرية . كانت القلوب ترتجف في ضلوع الجميع . كانت آلاف الأفكار تتصارع في ذهني : كيف سيمر هذا الموقف ؟ لو مر بسلام كيف ستمر الأيام القادمة ؟ ماذا تفعل أمي في هذه الساعة ؟ هل بدأت تقلق علي ؟ هل اتصلت بصديقي (منير) الذي قلت لها أنني سأسهر معه بالمنزل ؟ هل تدعو (منى) معي الآن كما طلبت منها ؟ هل من الممكن أن تستمر في حبي رغم أنني أصبحت (حراكا) ؟ من قال إن النساء لا يحببن

" الحراكا " ؟ إن حراك اليوم هو من سيعود غدا بسيارة فارغة و هاتف محمول أنيق

و حساب دسم في أحد بنوك أوروبا ، هذا ما قاله عبد العزيز يوما . و المرأة لا تحب في هذه الدنيا أكثر من أشياء كهاته . قد تحب المرأة الرجل الخاسر ، لكنها – أبداً – لا تتزوج – أو لا تتمنى الزواج – إلا بالثري . منى هي الوحيدة التي ليست مثلهن . منى العريضة التي رفضت أحدهم لأنه اعتقد أن أمواله تبيح له وضع يده في أنفه قرب أسرته كلها . أحبك أي مناي .

(2)

سمعت صوت عبد السميع من جديد يطلب منا أن نعتدل . فهمت أن الخطر قد زال . لكن عبد السميع قال :
- لقد فقدنا وجهتنا الأولى ، أخشى ما أخشاه أن تعترض طريقنا إحدى الصخور .

قالها بصوت قلق و مرتبك مما جعل قشعريرة باردة تتسلل عبر عمودي الفقري . إن رجالاً من طينته لا يقلقون . و إن قلقوا فعليك بأخذ كل الحذر بعدها و إلا فلا تلومن إلا نفسك . كان عبد السميع قد أعاد تشغيل المحرك من جديد في حين كان قد استبدل نظراته الواثقة بأخرى أقل ثقة و هو يحاول أن يخترق بعينه الضباب الخفيف و الظلام الذي لم تتجح النجوم وحدها في تبديده .

لم يتأخر ما توقع – و توقعت – حدوثه . سمعنا صوتاً مدوياً في قاع القارب الذي ارتفع بنا لما يزيد عن نصف متر في حين ارتدى كل واحد منا في اتجاه و لم أعد أشعر أين أنا بالضبط :

- أهذه يدك ؟
 - إذا سمحت أبعد إصبع قدمك عن فمي !
 - لماذا تدس يدك في جيبى ؟
 - يا أخ ! إن مرفقك يخترق صدري .
- كان القارب قد عاد يواصل مسيرته عندما عاد كل منا إلى مكانه ، لكنه – القارب – بدا بطيئاً جداً ، ثم شعرنا بالماء يتسرب تحت أقدامنا و أحواضنا . ما هذا ؟ قالها أحد بصوت مرتجف و جاءه الجواب بليغاً جداً من السي عبد السميع الذي قفز من

القارب دون أن ينبس ببنت شفة لابساً واقياً من المطاط (أين كان يخفيه ؟) كانت الرسالة واضحة جداً : " فلينفذ كل واحد بجلده". اللئيم السافل . من قال لك أن الجميع يستطيع السباحة ؟ ثم إن معنا نساء هنا ... و المشكلة الأكبر في هذا كله أنني – أنا – لا أعرف السباحة أيها الوغد . بدا من الواضح أن مستوى الماء قد ارتفع بسرعة و أن القارب موشك – بعد دقائق- على الغرق. أصبح الجو هستيريا .. خمسة أو ستة رجال بينهم مراهق قفزوا من القارب في حين أمسكت كل امرأة بمن يجاورها بقوة . كان من نصيبي المرأة الحامل، التي رأيت في عينيها نظرة لن أنساها ما حييت ... نظرة هي مزيج من الاستعطاف و الرجاء و الرعب المسعور. رباه ! إنها لا تعلم أنني أيضاً أحتاج إلى من أستجد به.

كيف يستطيع أبطال السينما الخروج من مواقف كهذه دون أن يموتوا رعباً ؟ بل إنهم – أتذكر – يستمتعون بها أيما استمتاع . تعالوا هنا أيها الأبطال لتروا إلى أي درجة أنتم سخيون.

كان القارب الآن عبارة عن مجرد أشلاء .. بدأ الحلم يختلط بالواقع في عيني. لم أعد أفهم شيئاً أو أركز . كنت أرى – و لا أرى – من يغرق أمامي، من يحاول الإفلات من آخر يمسك به متشبثاً بآخر أمل له في الحياة. كانت قطعة قوية من خشب القارب تلك التي أمسكت بها قبل أن يغرق القارب بصفة نهائية. طلبت من المرأة الحامل بصوت حاولت أن أجعله هادئاً ما استطعت : أمسكي كتفي معا برفق و لا تقومي بأي حركات متشنجة لئلا نغرق معا فأنا لا أعرف السباحة.

كان لي ما أردت فبدأت أضرب الماء بقدمي محاولاً أن أخمن وجهة الشاطئ الذي كنا سنصل إليه، كانت سرعتي بطيئة جداً، و كنت أسمع شهيق المرأة وراء ظهري. هل كانت تبكي أم تحتضر ؟

مضت ساعة من الزمن – أو هذا ما خمنت – تحولت خلالها إلى آلة ، هذا إن كان للآلات أقدام تضرب بها. كان هذا عندما رأيت ما يشبه الرمال ، أم هي الرمال فعلاً ؟

نعم ، إنه الشاطئ . رحماك يا الله .. لا تجعلني أتخاذل الآن ، لم يبق الكثير . كنت أحت نفسي ببذل مزيد من الجهد للإسراع في الوصول إلى الشاطئ في حين لم أعد أسمع للمرأة التي ورائي صوت رغم أن كفيها كانتا لا زالتا متصلبتين فوق كتفي. وصلت أخيراً .. لم أصدق ذلك ، و ربما لم يكن أمامي وقت لأصدق لأنني انهرت فاقدًا الوعي.

(3)

يبدو أنني تأخرت كالعادة في النوم ؟ لكن ، لم لم يرن هذا المنبه الغبي ؟ مددت يدي – دون أن أفتح عيني – لأبحث عنه فلم أجد سوى الفراغ في حين لمست يدي رمالاً . رمالاً ؟ أين أنا بالضبط ؟ و ما هذا الضوء الذي يخترق عيني غير عابئ بالجفنين ؟

أشعة الشمس أم الكشافات ؟ ألم يكن ما حدث البارحة حلما ؟ بصعوبة كبيرة فتحت عيني لأجد نفسي على الشاطئ فعلا . لكن ، أين ذهبت تلك المرأة ؟ يا إلهي ! لا يمكن أن تكون قد غرقت . إنها تحمل في بطنها روحا أخرى يا رحيم . "أنا هنا" . كان هذا صوتها قد جاء من خلفي بعد أن لاحظت حتما أنني أبحث عنها . الحمد لله . كانت جالسة القرفصاء تنظر إلى الرمال و هي تداعبها بأصابعها . كانت في حالة يرثى لها . و الرمال تملأ ثيابها المبللة و قد بدا شعرها أشعثا . أين الآخرون ؟ كان سؤال بلا معنى و بلا إجابة و لم أكن - في الواقع - أنتظر إجابة .

كان الشاطئ خاليا تماما ، لم يكن هنا سوانا . قلت :
- من الأفضل أن نبحث عن مكان آمن و بعيد عن أعين خفر السواحل أو حتى دوريات الشرطة التي من المحتمل أنها تتجول هنا أيضا .. ألا تفعل في بلدنا ذلك ؟
لم يبد عليها أنها قد سمعنتي ، لكنها و بحركة بطيئة جدا قامت من مكانها . كان من الواضح أنها تعاني و بشدة .. ملامحها كانت ترسم أفزع علامات الإنهاك و الألم . فكرت : بماذا يشعر جنينها الآن ؟ هل يعلم أنه قد انتقل من قارة إلى قارة في قارب رديء ثم مستعينا بكتفي أنا الذي لا أعلم عن السباحة سوى ما يعلمه جدي عن أحياء هلسينكي ؟ هل من الممكن أن ألتقيه يوما بعد أن يكبر ؟
لم يكن هناك غابة أو شيء من هذا القبيل حيث يمكن لمهاجر سري أن يختبئ .. أين الغابات التي كنت أقرأ في الأخبار أنهم يختبئون فيها ؟ يبدو أن هذه الدول ليست ديموقراطية تماما كما يدعون . سأطالبهم - عندما أصبح رجل أعمال - بغرس الأشجار هنا و جعل هذا المكان منطقة خضراء .
- ماذا تقول ؟ أنا لا أفهم شيئا ؟

- عفوا ؟! هل كنت أقول شيئا ؟ عذرا .. قطعا كنت أهلكوس .
كانت خطواتها قد أصبحت متثاقلة جدا و كنت أخشى بشدة أن يأتيها المخاض في هكذا لحظة ، فأنا لا أخشى شيئا مثلما أخشى صرخات النساء و أنينهن عندما يتألمن .. إنهن ماشوسيات و يتلذذن كل التلذذ بأن يصرخن و يبكين دون سبب ، فما بالك إن كان السبب قويا و لا غبار عليه .. حتما ستستمتع هذه المرأة بخربشة و تمزيق وجهي بأظافرها لحظات الولادة و أنا أحاول أن أبدو شهما و أحاول مساعدتها .

(4)

- صباح الخير أيها السيد و يا أيتها السيدة .
كانت هذه منه .. من واحد من رجال الشرطة .. كنا قد أصبحنا على رصيف الشارع الموازي للشاطئ . أحببت تحيته بالعربية فلم يبد عليه أنه فهم . كنت أعرف اللغة الإسبانية لكنني كرهت أن أتحدث بها . عندما يأتون إلى بلادنا نتحدث بلغتهم و عندما نذهب إلى بلادهم - و لو كمهاجرين سريين - نتحدث لغتهم . متى سيكونون مجبرين على تحدث لغتنا إذن ؟ أكره الغباء في مواقف كهذه و أكره إطالة اللحظات المأساوية . هذا الرجل سيكتشف بعد لحظات أننا مهاجرين سريين فلم التذكي ؟

كنت أجيب أسئلته بالعربية و هو يحاول جاهدا إفهامي أنه يريد أن يرى أوراقى. لم يستمر طويلا في محاولته إذ بدا أنه فهم – إن لم يكن قد فهم منذ الوهلة الأولى – أننا وصلنا لتونا من رحلة بحرية من الدرجة الأولى.

بعد دقائق قليلة كانوا يطلبون منى الصعود في سيارة الشرطة . لم أجد أمامي ما أفعله سوى الابتسام بسخرية عليها – تلك الابتسامة – تجعلهم يطرحون على أنفسهم آلاف الأسئلة . و عندما انصعت لأمرهم .. و عندما ركبت سيارتهم .. و عندما نظرت من زجاجها الخلفى ، كانت تلك المرأة تصرخ بقوة . لقد كانت تعيش لحظات المخاض و كانت تخمش بأظافرها وجه أحد الرجال الشرطة.

(*) الحراك : كلمة بالدارجة المغربية تعني : المهاجر السري.

دردشة

حتمًا كان يفكر أن وقت فراغه أصبح طويلًا حقًا . فكر في هذا و هو يعبر الشارع لذا لم ينتبه إلى تلك السيارة التي كادت تدهسه إلا بعد أن ارتفع صوت بوقها المزعج ممتزجا بسباب السائق و لعبه المتطاير. عندما تكون مخطئا فمن الأفضل أن تصمت. كذا قال لنفسه و هو يدس يديه في جيبي سرواله كمكلا طريقه . فكر أن مقاهي مدينته هي الوحيدة في العالم التي تمتلئ عن آخرها في العاشرة صباحا . الناس يكونون في أماكن عملهم في وقت كهذا في أي مكان في العالم. هنا يجلسون من الثامنة صباحا إلى الثانية عشرة ليلا . هم لا يجدون ما يفعلونه على أية حال – قال لنفسه –أو هو جو المدينة الذي يورث الكسل. ربما يكون هذا هو السبب.

هو أيضا لا يجد ما يفعله الآن بعد أن فقد عمله. من السهل هذه الأيام أن تفقد عملك كأنه زر قميص. هو متأكد أنه بعزة نفسه هذه سيبقى بلا شغل إلى الأبد . تذكر كيف كان كل موظفي الشركة التي كان يعمل بها يقبلون يد والد صاحبها . تذكر هذا و ضغط على أسنانه في غيظ . كان هو يصافحه بتعال متعمد . كلما ازداد أحدهم تكبرا ازداد هو أنفة و كبرياء. يوم يضع عزة نفسه في كيس بلاستيكي و يرميها جانبا سيستمر في عمله . يعرف هذا جيدا ، لكن المبادئ لا تقبل المساومة . رأس ماله الوحيد هو عزة نفسه، فليحافظ عليه.

دارت هذه الأفكار بذهنه و هو يدخل دون إرادة حقيقية إلى مقهى للإنترنت . ليس لديه ما يفعله هناك على وجه التحديد، لكنه سيتسلى ببعض الدردشة. عندما يكون مشغولا يرى أنها –الدردشة –هي السخف بعينه . لكنها تبدو له الآن –و هو البطالي –تسلية لا بأس بها على الإطلاق.

أسماء عديدة هناك . القاتل .. الرومانسي.. قلب الأسد .. الحالمة .. ليلي. قرأ مؤخرا موضوعا عن اختيار الأسماء و هذا و عن أنها تعبر بشكل ما عن شخصية صاحبها. وضع اسمه هو أيضا : " هناك- خطأ- لعين- دائما". اسم طويل و متحذلق. لكنه مستقر و هو يعبر عما بداخله حقًا.

كتب تقاهات كثيرة و قرأ سخافات لا تحصى. " هل يمكن أن نلتقي الآن؟". طرح هذا السؤال على واحدة اختارت لها اسم " الفاتنة". أجابت بسرعة أن نعم. هي متلهفة للقاء على ما يبدو . حدد معها موعدا بعد عشر دقائق في مقهى النمسا. طلب منها أيضا أن تصف له نفسها ففعلت . فكر لو أنها حقًا بهذه الأوصاف فهي مارلين مونرو قد عادت للحياة دون أن يعلم أحد.

سألها لماذا اختارت اللون الأسود بالضبط فقالت له أنها تحبه . كان ينتظر إجابة أعمق . هي إذن من الفتيات اللائي أن اللون الأسود هو أسود حقًا، ولا مزيد. بالتأكيد هي ستشتمه إن كتب لها أن اللون الأسود بالنسبة له هو لون الإحباط و القلق المشوب بأمل غريب. لا يهم. فليلتقها الآن، و لتزأر العاصفة بعدها.

جلس بمقهى النمسا و هو يطالع كل الوجوه النسائية التي تلجه. لقد كذب عليها عندما وصف نفسه بالوسيم. أتراها فعلت الشيء نفسه؟لم تتأخر الإجابة طويلا و هو يراها

تدخل بنفس الأوصاف سوى أنها لم تكن جميلة كما قالت. بدت له كغراب أسود يبحث عنه ليزيده تشاؤما. كانت عيناها كئيبتين، و لا أثر للحيوية أو النزق فيهما .
شعر بقلبه يخفق بقوة خشية أن تعرفه . هو صريح صراحة بشعة . و سيقول لها أنه ليس مستعدا للسوداوية اليوم و أنها من الفتيات الحاقصات على هذا العالم دون سبب واضح. لاحظ أن يديها معرورتين و هي تمر أمامه، في حين كان هو يتظاهر بالانهماك في وضع قطع السكر في فنجان. خمن أنها لم تعرفه. غادر المكان بسرعة دون أن يلتفت . مغامرة انتهت قبل أن تبدأ. هكذا فكر . ثم إنه انفجر ضاحكا وسط نظرات المارة الذاهلة.

حرية من نوع آخر

لدقائق طويلة ، وقفت أمام زجاج النافذة تشاهد الشارع الممتلئ بالحياة .. المرئيات تبدو لك مشوهة ، منكسرة بفعل المطر الذي يطرق الزجاج بالحاح ، لكنه لم يمنع هؤلاء القوم من الخروج . في بلدك ، عندما ينزل المطر ، تخلو الشوارع من المارة لكأن السماء تمطر حجارة لا ماء . عندها كان يحلو لك أن تخرج و تتمشى الهوينى ، وحيدا كالقنفذ ، مستمتعا أيما استمتاع بوحدة هاته . تحدث العالم و يحدثك ، تسأله فيجيبك . عند عودتك تقول لك (منية) أنك مبتل ككتكوت يتيم ، و أن الأنفلونزا هي آتية حتما لتقطن ثنايا جسدك . لكنك لا تكثر لهذا العطف المبتذل ، فأنت تعرف مسبقا أنها ستقول ذلك

و ستحاول – ما أمكنها ذلك - أن تبدو في صورة الزوجة العطوف . تعرف - أنت - أنها تقول ذلك مرغمة . نوع من اللابد الذي ليس منه بد . و هأنت اليوم تهرب (هل هو هروب حقا أم مواجهة ؟) آتيا إلى عالم أرحب و أوسع . (لندن) ليست هي (طنجة) بالتأكيد .

(لندن) شاسعة ، قاسية ، عابثة .. لن ترحمك إن لم تعرف كيف تدبر أمورك فيها . "ألن تكف عن دس رأسك في أوراقك البغيضة هذه ؟ "

كانت تقولها منية في لحظات الغضب ، حين كانت تفقد كل ميراث التعامل المؤدب الذي تعلمته ، فتبدو لك صادقة أكثر من أي وقت آخر . لكنك لم تكن تحتاج لكل هذا لتدرك أنها تمقت رؤيتك و أنت تكتب . مالذي تعرفه منية عن الإبداع ؟ هكذا سألت نفسك يوما ، ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكا بسخرية مريرة مختصرة أية إجابات أخرى قد لا تكون بليغة كما يجب . و تحين اللحظة التي لم تكن - رغم يأسك - تتمنى لها أن تجيء .. لحظة اتخاذ

القرار .. و يتدخل بعض المتحذلقين محاولين أن يكونوا أكثر ودا من الآخرين .. " كذا أنت .. متسرع دائما "

" إصبر يا صديقي .. لربما تفهمك يوما "

" ألن تكف عن حماقاتك هذه ؟ "

" طلاق ؟ يا لهذا الحظ المشؤوم "

الأولى من طين و الثانية من عجين .. هكذا كانتا أذنيك و أنت تستمع إلى الآراء الأخرى . لم يكن ذلك عن تعنت أو عناد غبي . لكنك كنت قد استنفذت كل ما لديك من صبر ، من أعصاب ، من روية . و أنت لا تريد أن تؤذي أحدا ، طبيعتك المرهفة لا تسمح لك . لذا اتخذت أقصر الطرق و أصعبها . لحسن الحظ أن زوجتك لم تكن حبلى بعد ، كان هذا سيجعل الأمر في حكم المستحيل بالنسبة لك . تاركا منية خلف ظهرك ، ذكرياتك ، مهنتك ، أصدقائك ، أختك ، و هي كل أسرتك الآن . تاركا كل ذلك ، جئت إلى لندن محولا كل رصيدك إلى أحد بنوكها ، عازما على معانقة معشوقتك ، على الغوص في عالمها حتى النخاع . " لسوف أكتب حتى تتوصل لي الأوراق أن أدعها و شأنها " .

و هاهي عاصمة الضباب توحى لك بالكثير ، بعشرات القصص ، بمئات الأشعار ،
بآلاف الخواطر ، و هاهي ذي آلتك الكاتبة التي حملتها معك تنظر إليك في توجس
هو إلى
الشوق أقرب .

تلتهم كل الطعام الذي حملته إليك خدمة الفندق . أنت لست جائعا ، لكنك خائف ،
متردد . منذ طفولتك و أنت تدفن مخاوفك بأن تأكل و تأكل ، تلوك الطعام ، تمضغه
بقوة . لكأنك تبلع كل خوفك معه . و بعد قيلولة طويلة ، تنهض مستعيدا نشاطك ، و
تمارس هوايتك المحببة بالسير تحت المطر . القطرات الحنونة تداعب وجهك بهدوء
الوجوه واجمة ، العيون شاردة ، لكنها على الأقل ليست فضولية . هنا ، يرى
الناس أنهم أولى بالمراقبة و لا يهتمون البتة بمراقبة الآخرين .
ها أنت ذا ، أخيرا ، تجلس خلف ذلك المكتب الصغير العتيق ، تداعب أزرار الآلة
الكاتبة ببطء . ليل لندن ليس صامتا كما يجب ، لكنك لا تهتم . تزداد سرعة أناملك
، تضغط على الأزرار في حنق ، ثم بانسيابية ، ثم بخشوع . بكل سعادة و حرية
تكتب ، و ليل لندن الرائع لا يسألك أبدا لماذا تجالسه كل هذا الوقت .

الخوف

مشكلة الرجال الذين يحترمون أنفسهم بشدة أنهم مستعدون للتنازل بسرعة كي لا يضطروا إلى الصراع مع أحدهم . لذا ، عندما منعه ذاك العامل من عبور الشارع بدعوى وجود إصلاحات تجعل عبور الشارع عملية محفوفة بالمخاطر لأنه – الشارع - يوشك أن ينقض. عندما منعه ، انصاع لأوامره دون كثير جدال. لم يكن عليه أن يخضع. كذا فكر و هو يدير عجلة السيارة متجها نحو اليسار ، نحو شارع فرعي جانبي . لكنه فعلها و طأطأ رأسه كما يفعلها دائما . قالوا له في طفولته أن " الخواف لا تخاف عليه أمه " ، لم ينجح في فهم المثال جيدا أيامها لكنه فهم أن كلمة الخوف تعني السلامة ببساطة فآثرها على غيرها. أحيانا يحاول أن يثور ما يلبث أن يتفكر في ما حدث لبعض من رآهم يثورون و يمزقون قمصان بعضهم البعض و في الغالب يخرج أحدهم بعاهة مستديمة . هنا، الشجار مسألة حياة أو موت و ليس مجرد وسيلة للتنفيس عن الغضب.

- هيا يا هذا ، لا وقت لدي لتفاهاتك .. دعنا نقوم بعملنا .

قالها له العامل بكل وقاحة و أتبعها بنظرة من طراز (إن - لم تغادر - حالا - فسأقتلك). هو لا يعلم أنه كاتب شهير على الصعيد العربي ، لكنه يخشى أن يقولها فيزيد من غضبه ، فالقليلون هنا يرون أن الكاتب شخص يجب احترامه. بل القليلون هم من يفهمون معنى كلمة " كاتب " . المجرمون و اللصوص الكبار هم فقط من يحظون بالاحترام .

بسرعة بطيئة يسير بسيارته متجنباً قمامات الأربال التي يمتلأ بها ذاك الشارع . فكر أن الشوارع ، ضاقت أو اتسعت ، تشبه بعضها . تذكر قصة " شوارع " للكاتب البلجيكي "جون راي" . لا يذكر على م كانت تدور أحداثها بدقة، لكن كلمة الشارع كانت دائما تثيره دون أن يعرف لذلك سببا !

ثمة شخص يبدو له واقفا في منتصف الطريق التي لا تثيرها سوى أضواء سيارته . توقف ليسمح له بالمرور لكنه ظل مكانه .

- انزل يا هذا فلدينا حديث معك .

كانت هذه منه، من ذاك الذي أطل برأسه من نافذة سيارته بوجهه الذي يجعل المرء يشعر بالابتهاج . وجه ذو ندبة بالتأكيد . اللصوص الذين يحترمون أنفسهم لا يرضون أن يخرجوا من بيوتهم بدونها .
هي عملية قطع طريق إذن ؟ سخر في نفسه من المفارقة العجيبة التي جعلت الجميع يناديه بـ " يا هذا " في هذا المساء .

برز ثالث من خلف السيارة و اقترب منه و هو يتلاعب بمديّة بين أصابعه .
اجتاحه شعور جعله يشعر بالخوف : إنه لا يشعر بالخوف . حاول أن يركز أكثر .
مثل هذه المواقف تجعل الرجال شديدي المراس يتخلون عن وقارهم و يسمحون لمثانتهم بالانهيار فما بالك به هو الذي عاش بين الكتب و الأقلام و مثال " الخواف لا تخاف عليه أمه " . لا بد أن يشعر بالخوف و إلا فإن هناك أمرا غير طبيعي يحدث . هل يحلم ؟ لا بالتأكيد ، و للأسف .

- هيا ، كن عاقلا و امنحنا كل ما تملك و بسرعة فنحن نافذو الصبر كما لعلك تعلم .

- و إذا لم أفعل ؟

أخيرا ، لم يعد يبالي بقلقه .. لا يمكن أن يرغب نفسه على الشعور بالخوف عنوة . إن هي لحظات شجاعة قد تكون عابرة ، و قد تكون الأخيرة . فليستمتع بها .
شجاعته جعلته يشعر أن المجرمين الثلاثة خائفون . نعم ، إنهم خائفون رغم أنهم يتظاهرون بعكس ذلك ، لا زالت بقايا أناهم العليا تضربهم على أيديهم و تقول لهم أن ما يفعلونه عيب و بالتالي فهم مهزوزون .
ازدادت رباطة جأشه فقال :

- حسنا ، حسنا ، لا يغضبن أحدكم .. هذا أولا الهاتف المحمول خاصتي .

و في حركة مفاجئة و سريعة أخرجه من جيبه و كقنبلة مدوية رماه بقوة في وجه أقرب الثلاثة إليه . صوت الفرقة كان مخيفا . أهو صوت تهشم أنف اللص أم المحمول ؟ تراجع إلى الوراء و هو يدس يده في جيبه و كأنه يهم بإخراج سلاح "

أبيض" آخر . كان اللص يئن بقوة و هو يتراجع في حين تردد الأخران و هما
يقدمان خطوة و يؤخران اثنتين .
كان يعلم أن نظرة الاستهتار في عينيه مثيرة للهلح . لم يخب ظنه إذ تحامل الثالث
على نفسه و اتكأ على الآخرين و انطلق الثلاثة لا يلوون على شيء.
نظر إلى هاتفه المحمول الذي أصبح أشلاءً . لم يشعر بكبير أسف عليه . ركب
سيارته بهدوء و انطلق بها من جديد قائلاً لنفسه :
- كم هم جبناء هؤلاء القوم . يبدو أنهم أقنعوهم في طفولتهم أن أهم لن تخاف
عليهم إن هم كانوا خوافين .
و من فيه انطلقت قهقهة عالية تردد صداها في الشارع كله.

رغبة

في الواقع ، لم يكن أحمد بدينا، لكنه كان يوحى بذلك. لذا لقبناه بالبدين. عيناه
الذابلتان و كتفاه المتهدلان و مشيته المترامية إضافة إلى ترهل بشرته .. كل هذا
كان يعطيك انطباعا بأنه بدين فعلا.
كانت الساعة تشير إلى الخامسة إلا أربع دقائق .. ثمة عصفور يحط على أرضية
الحديقة . يلتقط شيئا ما .. يكتشف أنه مجرد قطعة حصى فيغادر دون كبير بأس.
السماء غائمة كما أحبها ، أحيانا تسقط قطرات غيث ثم ما تلبث أن تتوقف .. مجرد
غزل لذيق يروق لي بشدة.
عندما أشارت ساعتى اليدوية إلى الخامسة بالضبط كان أحمد قد بدأ يلوح لي من
آخر الشارع .

- في ميعادك بالضبط .. فقط أنت لا تلهث هذه المرة كعادتك .
- لا يمكن أن تلهث في موعد خططت له منذ سنة !
- نظرت إليه محاولا استشفاف ما يدور في باله لكنني فشلت.
- ما آخر أخبار طليقتك ؟ ألن تستسلم و تردها أيها الولهان ؟
- علينا أحيانا أن نقتل أحاسيسنا قبل أن تقتلنا هي .
- هل أنت جاد ؟
- ربما لم أكن جادا مثلما أنا عليه اليوم .. لا تنظر إلي هكذا وانتبه كي لا
ترتطم بعمود الإنارة ذاك !
- إنها رغبة و سأحققها . هذا ما كان يقوله لي منذ سنة و أنا أحاول أن أبدا بمظهر
المتحضر فعلا فلا أسأل عن شيء و لا عن سر هذه الرغبة و كنهها . منذ يومين
فوجئت به يطرق بابي ..
- أحمد ! مرحبا ، لم أعتدك زائري في هكذا وقت .
- لنقل أنني لم آت لأزورك بل فقط لأخبرك أن موعد تحقيق رغبتى قد جاء ..
يوم الأحد على الساعة الخامسة مساء بالضبط . أرجو أن أجدا بانتظارى
كالعادة.
- مهلا ، لكنك لم تخبرني عن المكان .
- حديقة العشاق.
- و ها نحن نحث الخطى معا لأرى سر رغبة أحمد هذه و ليرَ هو كم سأنبهر بذلك.
كان منزلا منعزلا ذاك الذي فتح أحمد بابه . في الداخل كان هناك عدد كبير من
المقتنيات من الزجاج و الخزف و الخشب .
- ما هذا ؟ هل غيرت هوايتك و أصبحت جامع تحف ؟ أعرف أن لا هواية لك
سوى التدخين !
- لم يبد عليه أنه سمعني و هو يقوم بترتيب تلك الصالة بلمسات أخيرة .
- أخيرا ، ابتعد لبضعة أمتار و سألني :
- ما رأيك الآن ؟

نظرتي الذاهلة، الغبية، المتسائلة ، جعلته – أخيرا – ينتبه إلى أنني لا أفهم شيئا .
قال :

- ليست هذه مقتنيات ثمينة إنها مجرد قطع بالية اشتريتها من سوق الخردة و قمت بتنظيفها بعض الشيء. طبعاً لاحظت أن المنزل ككل فارغ من أي أثاث و هذه الصالة لا تحوي سوى ما ترى . هل لاحظت عاملاً مشتركاً ما بين هذه المقتنيات؟ أرنا ذكاءك هيا .
 - لا أكره شيئاً في هذه الدنيا مثل هذا النوع من الأسئلة الذي يخوله لك وقوفك خلف المدفع . أنت الآن في موقف قوة . تعلم ما لا أعلم و تحاول أن تبدو أذكى. هذا ليس مقياساً. أنت تذكرني بطفولتي عندما كنت أضع شيئاً في كفي و أغلقها ثم أبدأ بالسؤال : من منكم يعرف ما في يدي ؟
 - حسناً .. حسناً .. أنت جهبذ في الإجابات الملتوية ، لكنك الآن ستشهد على حدث سترويه للجميع و لن تنساه أبداً . أرجو أن تتراجع قليلاً. فالعامل المشترك بين هذه الأشياء أنها قابلة للكسر . هل أنت مستعد ؟
- أومأت له برأسي أن نعم.
- من تحت حصير مهترئ أخرج هراوة حديدية . و بدأ يقوم بآخر شيء أتوقعه .. طراخ .. أنية تتكسر .. كراش .. امرأة تتهشم .. بوم .. كرسي يتحول إلى فتات .. لمدة عشر دقائق لم يتوقف أحمد عن تفسير كل شيء بقوة و بجنون لم أر لهما مثيلاً حتى أنني أصابني بعض الخوف فاقتربت من الباب تحسباً لأي تصرف أرعن من طرفه.
- أخيراً ، هدأت العاصفة و جلس أحمد متكئاً على الحائط و هو يلهث .. رجل منهار وسط شظايا أحلام متناثرة .. هكذا بدا لي عنوان اللوحة التي رسمها أحمد لحظتها ..
- يا الله ! كم هذا مريح . أخيراً حققت رغبتى . منذ مدة و أنا أشعر أن هناك ضغوطاً أقوى مني .. أحداث قاسية تحيط بي .. كنت أرغب في الصراخ ، في التكسير .. لكن أين و كيف و أنا – كما تعلم – أجبن من دجاجة ؟ حسناً .. ربما هذا تفسيري البسيط لما حدث .. ربما هناك دوافع أخرى ، ربما ترغبون جميعاً في أن تفعلوا ذلك لكنكم تخافون مثلي. لكنني أختلف عنكم في أنني استطعت أن أحقق رغبتى و إن بهذا الشكل. لقد قرأت شيئاً عما قاله أوسكار وايلد عن الفن للفن و ما قاله ليلوش عن الحياة للحياة. أهى إذن رغبة في التكسير لأجل التكسير؟ ربما. لكنني – بصراحة - لا أؤمن بهكذا عبث.
- ظللت أنظر إليه لثوان . بدا لي هادئاً جداً و مرتاحاً . و لنقل إنني لم أكن أطلب أكثر من هذا . هاهو رجل آخر يحقق حلماً، و لعل أحلامه تلد لنا أحلاماً . من يدري ؟ المهم أنه طلب مني أن أحكي ذلك للآخرين . و ها أنا أفعل ذلك معكم.

سيرة ذاتية لا بأس بها على الإطلاق

فكرت أن أكتب سيرة ذاتية ، لا أدري لماذا هذه الرغبة السخيفة في الكتابة عن نفسي. لكنني بعد أن استشرت عددا من قرائي ، شخص أو شخصين على الأكثر ، شجعوني على المضي قدما في هذا العمل. هكذا إذن ، و أمام هذا الإقبال الجماهيري المحموم و المنقطع النظير ارتأيت أن أقدم على ذلك فعلا. لن أبدأ بنفسي ، لأن البداية لا تكون دائما حيث نبدأ نحن ، ربما كان الآخرون هم البداية.

سأستهل هذه السيرة بجدي إذن . لقد كان جدي رجلا عظيما (و كل رجال الماضي عظماء بالمناسبة) ، كانت له مساهمة كبيرة في الاقتصاد الوطني ، و كانت له عادة غريبة بعض الشيء ، فقد كان يفترش أرصفة المدينة و يظهر للناس باطن كفه. و أتساءل ، لحد الآن ، عن السر الذي كانت تحويه راحته ، ذلك أن المارة كانوا – مسحورين – يضعون فيها أموالهم .

كان من الرجال الذين يكسبون المال بعرق جبينهم على عكس شباب اليوم المترفين، و لم يكن يخضع لدوام عمل محدد، بل كان يعمل أحيانا أكثر من أربعة عشرة ساعة بصبر و أناة يحسد عليهما. و لتواضعه الشديد ، لم يكن يلبس إلا الرخيص من الملابس ، بل إنه كان يتمادى و يكتفي بالأسمال في أحيان كثيرة، و لكي يكون شخصا مميزا كما يفترض لشخص مثله فقد توفي و لم يترك وراءه شيئا .. يا لعادات العظماء الغريبة هذه !!

و لقد ترك خمسة أبناء كان من بينهم والدي العزيز . والدي الذي سار على درب والده مع اختلافات واضحة لا تكاد تلاحظ. و لا بد أن أذكر أن والدي كان يعاني من عقدة نفسية ، فقد كان يكره الجيوب و الحافظات الممتلئة ، و يرى أنها منظر مؤذ للعين حقا، لذا كانت الحافلات المزدحمة و الأسواق هي ملجأه لتخليص العالم من مناظر فظيعة كهذه. و عندما كان يلحظه الآخرون و هو يقوم بعمله كانوا يحتقون به على طريقتهم ، و على ما يبدو أن الناس وقتها كانوا يعانون –هم أيضا – من عقدة جماعية تمثلت في أنهم كانوا يكرهون أن يروا صف أسنان أبي المكتمل ، لذلك كانوا يخلصونه من بعضها من باب تبادل المنفعة و التخلص من العقد النفسية. على أن والدي كانت له بعض الهوايات التي يكسب منها أيضا، فقد كان يهوى التجول في الأزقة المظلمة ليلا، و كان يحب أن يرى الآخرين يتقافزون مرحا إذ يخزهم بما تحمل يده، ثم إنه كان – من باب التسلية – يخلصهم مما يملكونه كي لا يثقل عليهم.

و قد تحمس يوما بشدة لهوايته هذه ، و كانت وخزته قوية لأحد المارة ، الذي توفي من كثرة السعادة و الغبطة الذين كان يشعر بهما إذ يمارس أبي لعبته معه. و اعترافا منهم بما أسدى للوطن من خدمات ، و خوفا عليه من المتربصين، قام المسؤولون بإخفائه في أحد الفنادق الراقية ، هو و عدد من العظماء أمثاله. و قد

كانوا يلبسونهم لباسا موحدا هناك. ثم قرروا أن أبي لا بد أن يتميز فمنحوه بذلة حمراء مبهجة تسر الناظرين.

و لم يمر وقت طويل حتى توفي والدي تاركا وراءه قلوبا حزينة على فراقه ، و لم يدرك أحد كيف حدث هذا.

أما أنا ، فقد ولدت في ليلة عاصفة (أو لا يولد الأبطال إلا في الليالي العاصفة ؟) ، و لا زلت أذكر أنني عضضت إصبع الطبيب دلالة على الاحتجاج لأنهم أخرجوني من الظلام و الدفء إلى الأضواء و البرودة، لكنه -اللعين- لم يشعر بشيء و هو يمسكني من قدمي و يضعني في ميزان بارد، مبتسما بطيبة مبالغ فيها مصرحا أنني أقل من الوزن العادي بقليل ، لكن ذلك لم يكن مقلقا كما قال .

أعترف أنني لم أكن وريثا محترما لوالدي و أجدادي ، فقد اخترت مهنة رديئة و بدلا من أن أحمل أسلحة أخرى حملت "سلاح التلميذ" ، و هو القلم طبعا. أعرف أنني في نظر أجدادي مجرد هرطيق ، مجرد "رجل أبيض رقيق" ، يخشى الحياة و يكتب عنها بدلا من أن يعيشها.

هذه هي سيرتي إذن ، حقا إنه لجنون أن يكتب المرء عن نفسه . لكن حياته ملحمة أسطورية تستحق أن يطالعها الآخرون.

السيرة الذاتية للكاتب عبد الواحد استيتو



عبد الواحد استيتو – قاص مغربي
من مواليد مدينة طنجة سنة 1977

- حاصل على جائزة محمد شكري للإبداع السنوي المغربية للقصة القصيرة 2003
- حاصل على الجائزة الثانية لنادي حائل الأدبي للقصة القصيرة 2003
- حاصل على الجائزة الخامسة لنادي حائل الأدبي للقصة القصيرة 2001
- حاصل على جائزة المبدعون للرواية 2001

- له عدة قصص قصيرة منشورة بعدد من المنابر العربية : الشرق الأوسط ، القدس العربي ، الصدى، أفق...
- رئيس تحرير جريدة "طنجة نت" المتخصصة في تقنية المعلومات
- سكرتير تحرير جريدة أحداث البوغاز المحلية
- رئيس تحرير جريدة "طنجة الأدبية"
- البريد الإلكتروني: ababid@aflam4u.com

